الرسول الأعظم لدى الإسلام والغرب

د. عبد الراضى عبد المحسن(*)

مقدمـــــة

الحمد لله الذي مَنَّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلـــو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وأشهد ألا إله إلا الله وحـــده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ إِنَّـــا أَرْسَـــلْنَاكَ شَـــاهِدًا وَمُبَـــشِّرًا وَنَذِيرًا. لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْـــرَةً وَأَصِـــيلاً ﴾ [الفتح : ٨-٩] .

أما بعد؛ فقد سبّب التدافع الحضاري بين الشرق والغرب بـــروز بعـــض المواقف الغربية الانفعالية من رسول الإسلام ﷺ ، والتي تلت أحداثاً مفصلية في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب هى على الترتيب:

أولا: حركة الصحوة الإسلامية التي عمت أرجاء العالم الإسلامي ســـعيا إلـــى التحديث والتنمية وإثبات الذات الحضارية في أعقاب التحرر من الاستعمار الغربي.

ثانيا: الثورة الإيرانية وما أعقبها من حركة احتجاز الرهائن الأمريكيين التـــي استغرقت ٤٤٤ يوماً.

ثالثا: تحلل واختفاء الاتحاد السوفيتي الغريم التقليدي القـــوي والمحفـــز علـــى توحد الغرب خلف ثقافة " مواجهة الآخر"، مما يتطلب إيجاد بـــديل "آخـــر"

(*) الأستاذ المستشار بكرسى المهندس عبد المحسن بن محمد الدريس للسيرة النبوية ودراستها المعاصرة بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية .

يتمترس خلف الفكر والأيديولوجيا الغربية لضمان حقبة جديدة من الحيوية والتمدد.

رابعا: هجمات الحادي عشر من سبتمبر على مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن عام ٢٠٠١م.

فقد عادت تلك الأحداث بالفكر الغربي مجدداً إلى التقسيم القروسطي للعالم " نحن، هم"، الذي يحول عمليا دون إجراء مناقشة حقيقية وحوار مثمر وتبادل فعّال بين الحضارة المادية الغالبة، والحضارة الإسلامية الباحثة عن مكانتها اللائقة.

ذلك الأمر الذي جعل مثيري الدهماء في الغرب يعدون مجرد محاولة تأكيد الهوية الإسلامية- من جانب أي مسلم- ضرباً من التحدي الكوني يستوجب المواجهة بضرورات البقاء والوجود فكان ذلك باعثاً لأجهزة الإعلام الجماهيرية أن تمارس لونا من فوبيا معالجة رموز الإسلام وحضارته ومعتقداته معالجة متلّونة بالملّونات السياسية والاقتصادية والفكرية، وغير محكومة بمتطلبات الموضوعية والإنصاف، ولا تستند إلى حقائق التاريخ والمعارف الصحيحة والمناهج العلمية الرصينة، بل هي معالجات مرهونة بأحكام السوق الاقتصادية وقانون العرض والطلب القائم على نسب الربح والخسارة المادية، فما يريده القارئ والسوق يوفّره الكتّاب، والمؤلفون، والخطباء، بغض النظر عن مجانبته الصواب العلمي، أو الحقيقة التاريخية، أو السلامة العقلية، أو أصول الأخوة الإنسانية، أو التعاليم الإنجيلية: "سمعتم أنه للأولين: لا تقتل، فإن مَنْ يقتل يستوجب حكم القضاء. أما أنا فأقول لكم: مَنْ غضب على أخيه استوجب حكم القضاء، من قال لأخيه يا أحمق فقد استوجب حكم المجلس ومن قال له يا جاهل استوجب نار جهنم" (إنجيل متى ٥/٢١-٢٢).

وقد اتخذت تلك المعالجات الإعلامية شكل الموجات المتوالية، هبوطا وارتفاعاً نال منها النبي محمداً ﷺ القدر الأوفى من محاولات النيل والتشويه. لكن لأن سنة الله وحكمته قد اقتضت ألا يخلو عالم من الأخيار، أو بحر من كريم الأصداف والأحجار، أو ثقافة من فضيلة الاعتراف والإقرار بما للآخر من حقوق ومزايا وأفضال.

فإن سلسلة طويلة من أبناء الغرب تمثل أساطين النخب الأدبية والفكرية والعلمية، والتي امتدت عبر قرنين من الزمان تظل شاهدة العيان الغربي على عدم قدرة الأفكار المغلوطة والآراء الأنفعالية على تغييب العقول الحرة والضمائر العلمية الحية عن دورها في إنصاف كبار الشخصيات التي أسهمت بحظٍّ وافر في تاريخ البشرية والرسلات السماوية.

ولاشك أن هذا الشاهد الغربي المنصف هو أبلغ دليل وأنجح وسيلة في كشف خطأ حملات الإعلام المستهدِفة رسول الإسلام، وتفويت الفرصة على مثيرى الدهماء وسماسرة الحروب وصدام الحضارات في تزييف الوعي الغربي المعاصر وتكريس الصورة العدائية لدى جماهيره العريضة حول الإسلام ورسوله ﷺ.

فهذا الشاهد المنصف ينطق لغة الغرب وبمنطقه، وقد جاء من رحم فكره وثقافته وتدينه، فهو جزء من المنظومة الغربية ونسيجها، مما لا يقدر عاقل على رد شهادته، أو التشكيك في صدقها ومصداقيتها، فهى وليدة البحث الحر غير الموجّه، لأنها لم تكن تخاطب العرب أو المسلمين أو تخطب ودهم، فقد صدرت عن رعايا دول كانت تشكل امبراطوريات تستعمر ثلاثة أرباع العالم

الإسلامي، فهى ليست سوى قناعات مقصود بها أبناء الغرب، كما أنها نابعة من رصيد معرفي، وعلمي، وثقافي، وفكري ثري، من نتاج الحضارة الغربية الحديثة.

ويمثل هذا الشاهد الغربي المنصف من جهة أخرى التنوع المعرفي بأتمّ معانيه، مما يؤكد وحدة الحق وإن تنوعت مجالات البحث عنه والصدع به، فقد جاءت مواقف المنصفين لرسول الإسلام من جانب قمم غربية شغلت حيزاً مرموقاً في خارطة الحضارة الحديثة بمجالاتها المتعددة: الفلسفة، الأدب، الفكر، العلوم التجريبية، الإعلام، اللاهوت، تاريخ الأديان، الاستشراق.

وليست هذه القمم صفحة من الماضي الغربي العريق، بل هى ممتدة حتى يومنا هذا، فإذا كان جوته، وفولتير، وكارليل، ولوبون، وزيجريد هونكه من الموتى ، فإن مونتجمري وات، وهانز كينج، وكارين أرمسترونج، وكارل إرنست، ممن يملأون السمع والبصر.

وربما تكون القيمة العلمية والمعرِّفية التي يمثلها أصحاب تلك المواقف المنصفة هي السبب في تأخر بداية ظهورها إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك لاستناد الحق والحقيقة دائما إلى المعرفة الصحيحة والمنهجية العلمية اللتين لم يكن بالإمكان توفرهما دون ترجمة معاني القرآن الكريم وكتب السنة والسيرة إلى اللغات الأوربية، تلك الترجمات التي مكّنت أحرار الفكر من التخلص من الأساطير والأوهام المعرفية حول نبي الإسلام، تلك التي نشأت عن الجهالة المعرفية إلى حد بعيد.

ولا تقتصر أهمية المواقف الغربية المنصفة لرسول الإسلام ﷺ على ما لها من قيمة علمية ومعرفية، بل تتجاوز ذلك إلى شموليتها، فقد شملت جميع جوانب مسالة العظمة :المعايير ، المرتبة ، الشهادة. .

ولأن للحق جانبين؛ جانباً منهجياً، وجانباً معرفياً يتوقف على سلامة الأول ودقته، فقد حرصنا على أن يكون تناولنا لهذه المحاور والمباحث بالمنهجية الملائمة التي تناسب طبيعة بحث المنصفين عن الحق، فاعتمدنا المنهج التاريخي التكاملي الذي يجمع شذرات الحق والإنصاف التي تناثرت عبر السنين؛ ليشكل منها الرؤية المنصفة التي تكشف عن وحدة الحق وإن باعدت المجالات والأمكنة والأزمنة بين شذراته.

والتماساً لأصول المنهجية العلمية، وإرساءً لضوابط الموضوعية والإنصاف، ووفاءً بشرائط التحقيق والتدقيق المعرفي، ودرءاً لشبهات التَعسف في التأويل والقراءة، أو الانسياق وراء إغراء الادعاء بغير حق.

فقد ألزمنا أنفسنا إيراد شهادات المنصف الغربي لنبي الإسلام ﷺ، أو إثبات مناقبه المحمدية، أو تصويبه فهماً خاطئاً أو شائعاً حول الرسول الأعظم ﷺ، بنصوصها الواردة بها في لغاتها الأوربية، وذلك كي تسلم الحجة، ويستقيم الاستدلال، ويتم البرهان، فيسهل الاقناع والاقتناع.

ولم يكن ذلك الالتزام المنهجي بالأمر الهيِّن، فقد استلزم جهداً موفوراً وبحثاً موصولا في بحار المصادر والمراجع الغربية، فحصاً ودرساً للنصوص في لغاتها الأصلية الرئيسة: الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية.

والله أسأل أن يكون هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم، نصرةَ لدينه، ومحبة لرسوله العظيم ﷺ، كما لا يفوتني بالغ الشكر لكرسي المهندس عبد المحسن الدريس للسيرة النبوية ودراستها المعاصرة على رعايته للبحث من خلال جهود أ.د. عادل الشدى المشرف على الكرسى والبحث فجزاه الله خير الجزاء .

اللهم علمنا ما جهلنا، وانفعنا بما قد نكون علمنا من شمائل الرسول الأعظم، واجعلنا من أهل شفاعته، فلك الحمد والمنة في البدء والختام.

"Ce fut certainement un tres-grand home…Conquerant. Legislateur, monarque et pontife, il joua le plus grand role qu'on puisse jouer sur la terre aux yeux du commun des homes"

" لقد كان بالتأكيد رجلا عظيماً
جدا... مشرّع فاتـح، حكيـم،
إمام. لقد قام بأعظم دور يمكن
أن يقوم به إنسان على ظهـر
الأرض."

فولتير

العظمة هي القدر العالي الذي يُقدَّر به الشيء، أو المكانة التقديرية الكبيرة والمرتبة الرفيعة التي يوضع فيها أعلام البشر جزاء ما قدموا لأممهم وشعوبهم خاصة، أو للإنسانية عامة. وبذلك تكون العظمة مكانة استثنائية معبرة عن التفاوت في القدر بين مَنْ يتبوأها وبين بقية إخوانه من بنى البشر. وهذا التفاوت والتفاضل في الدرجات بين بني البشر حقيقة أصيلة قررها الإسلام من خلال مصدريه:

الكتاب العزيز والسنة المطهرة في أكثر من مقام وبأكثر من طريقة ليس هذا موضع بسطها.

وقد كانت مسيرة النبي محمد ﷺ، وأحوال أمته قبل بعثته، ووقائع حياته ﷺ المتصلة بالبلاغ والتبليغ هى المرآة التي عكست قدر النبي ﷺ، واستحقاقه منقبة العظمة في الإسلام.

ولم يكن المرشد الإلهى الأول إلى تلك المنقبة سوى القرآن الكريم والسنة المطهرة إذ بيّن القرآن منذ البداية ثقل المهمة المنوط بها النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [سورة المزمل: الآية٥] ، تلك المهمة التي يزيد من حدة ثقلها اتساع مجال إبلاغها الذي يشمل العالمين ويستهدف رحمة البشرية برمتها. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية١٠٧]. فما أشقها مهمة أن يُكلَّف شخص النبي ﷺ بتغيير مسار العالم الديني بما أُوحى إليه. قال تعالى: ﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سورة إبراهيم : الآية ١] .

لذلك فقد تطلبت هذه المهمة الفريدة في تاريخ البشرية الديني وتاريخ الرسالات السماوية طبيعة فريدة لشخص القائم بها، ومكانة متفردة تناسب دوره

ومهمته، وهو ما قرره القرآن الكريم لشخص الرسول ﷺ، فعلى الرغم من كونها شخصية بشرية خالصة، فإنها أُعدَّت برحمة الله، فلانت للبشر فاجتمعوا حولها قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران : الآية ١٥٩] .

وكان هذا اللين إلى جانب سمات خلقية أُخر اجتمعت في شخص النبي ﷺ قد كفلت له ﷺ شهادة إلهية وتزكية ربانية بأنه الرسول الأعظم خلقياً. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : الآية ٤] .

وبهذه الشخصية النبوية المتفردة استحق الرسول الأعظم مكانة استثنائية بين الأنبياء والرسل وبين بني البشر، وذلك في الدنيا والآخرة: فهو ﷺ أفضل الخلائق كما عنون الإمام مسلم في صحيحه لحديث النبي ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع)[1]، وهو خاتم الرسل وأفضلهم، كما أخبر ﷺ" فُضِّلتُ على الأنبياء بست: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحلَّت لى الغنائم، وجُعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتِم بي النبيون" [2]. ولم يكن لمثل هذه

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الفضائل/باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق)

(٢) صحيح مسلم (كتاب المساجد/باب جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً) وقد أورد الإمام البخاري خمساً فقط من جوانب أفضليته ﷺ على الأنبياء والرسل من حديث جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال: " أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحد قبلى، نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة" صحيح البخارى (كتاب التيمم/باب قول الله تعالى: " فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً")

الشخصية الفريدة العظيمة إلا أن تكون مثالاً يُحتذى وقدوة تُقتدى وأسوة تُتَّبع، كما أشار القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : الآية ٢١] .

وهو ما لا يمكن تحققه إلا برفعة ذِكْره ﷺ، ذلك الأمر المقرون بأيام الدهر كلها وليس حال حياته ﷺ، فمهمة التاريخ هى الإشادة بمآثر ذي المآثر بعد وفاته وليس السير بذكرها حال حياته فحسب ولذلك كان تاريخاً.

وقد تكفل الله تعالى برفعه ذكر النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح : الآية ٤] ، فانطلقت الألسنة تلهج بعظمة شخصية النبي ﷺ في كل محفل وزمان ومكان، وسوَّدت صفحات التاريخ بجلال قدره،وعظمة شخصيته، وعظيم جهاده، وكريم عماله ، وجزيل خدماته للإنسانية بأسرها.

ولم يكن الغرب وحضارته وفكره بدعاً في ذلك، فقد أنطق الله الذي أنطق كل شيء ألسنة وأقلام المنصفين من أبنائه بمحامد الرسول الكريم وفضائله ، فلم يُمَار أولئك المنصفون في مكانة الرسول الأعظم، لكنهم اختلفوا حول مرتبة تلك العظمة، وجوانبها، ودواعي استحقاق الرسول الأعظم لها، وذلك على النحو الأتى:-

المطلب الأول: مراتب عظمته ﷺ :

تباينت مرتبة العظمة التي وضع فيها المنصفون الغربيون النبي محمداً ﷺ، ويرجع ذلك إلى تباين معايير العظمة التي وضعها كل منهم، والجوانب التي نظروا للعظمة من خلالها، وإلى أي درجة تحققت تلك المعايير، فكلما اتسع محيط تلك المعايير وازداد عمقها لتلامس جوانب التنمية البشرية والارتقاء بالإنسان دينياً وأخلاقياً وحضارياً، وكذلك الإصلاح الاجتماعي والبيئي المؤثر في عمارة الكون وبناء الحضارات، كانت المرتبة التي يوضع فيها رسول الإسلام أرفع وأعظم وأكثر تفرداً، وكلما كانت المعايير أقل شمولاً لهذه الجوانب شاركه غيره في مرتبة العظمة التي وضعه فيها المنصفون. ولذلك جاءت مرتبته ﷺ في العظمة على النحو التالى:

١- نبي عظيم:

كان توماس كارليل Thomas Carlyle [1] في محاضرته التي ألقاها في لندن عام ١٨٤٠م أول من صنف محمداً ﷺ في مرتبة النبي العظيم، وذلك على الرغم من تطرقه إلى معيار التأثير العالمي الواسع الذي أحدثه النبي ﷺ، لكن يبدو أن الذي جعله يقتصر على الاكتفاء بوضع النبي ﷺ في مرتبة النبي العظيم -فحسب -هو المعركة التي كان يخوضها كارليل في مواجهة التراث والتقاليد الغربية التي كانت مستقرة على تصنيفه نبياً كاذباً، فلذلك استحوذت قضية إثبات

(١) الكاتب الإنجليزى المعروف الذي ولد عام ١٧٩٥م وتوفي عام ١٨٨١م، من أشهر مؤلفاته كتاب " الأبطال " الذي يتضمن أعظم الشخصيات تأثيراً في العالم من خلال المجالات المتعددة التي أصبحوا أبطالها بلا منازع. وفيه أفرد مقاله عن البطل النبي بوصفه يتجسد في شخص محمد ﷺ.

صدقه ﷺ وإخلاصه في دعوته على عناية كارليل؛ لينتهى منها إلى أنه ﷺ نبي صادق عظيم القدر مثل غيره من الأنبياء الذين عرفتهم البشرية.

يقول كارليل Carlylr مشبّهاً النبي ﷺ في عظمته وعظمة دوره بالشهاب النازل من السماء:[1]

" To the Arab Nation it was as a birth from darkness into light, Arabia first became alive by means of it. A poor shepherd people, roaming unnoticed in its deserts since the creation of the world: a Hero-Prophet was sent down to them with a word they could believe: See, the unnoticed becomes world-notable, the small has grown world-great; within one century afterwards, Arabia is at Grenada on this hand, at Delhi on that;-glancing in valour and splendour and the light of genius, Arabia shines through long ages over a great section of the world. Belief is great, life-giving. The history of a nation becomes fruitful, soul-elevating, great, so soon as it believes. These Arabs, the man Mahomet, and that one century-is it not as if a spark had fallen, one spark, on a world of what seemed black unnoticeable sand; but lo, the sand proves explosive Powder, blazes heaven-high from Delhi to Grenada! I said, the Great Man was always as lightning out of Heaven; the rest of men waited for him like fuel, and then they too would flame.

" لقد أخرج الله العرب به من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة، وهل كانت إلا فئة من جوّالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة؟.

فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ورسالة من قبله، فإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقاً وسع نوره الأرجاء، وعمّ ضوؤه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب

(1) Thomas Carlyle, On Heroes ،Hero-Worship,& the Heroic in History.p.66 University of California Press. Loss Angeles- Oxford 1993

يد في الهند ويد في غرناطة، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة.

وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة وما زال للأمة رقي في درج الفضل وتعريج إلى ذرى المجد مـا دام مـذهبها اليقـين ومنهاجهـا الإيمان. ألستم ترون في حالة أولئك الأعراب، ومحمدهم، وعصرهم، كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التي كان لا يبصر بها فـضل، ولا يرجى فيها خير، فإذا هي بارود سريع الانفجار، وما هي برمل ميت، وإذا هي قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهي.

ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فـي انتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأجَّجوا أو يلتهبوا".

ويقول كارليل منتهياً إلى انطباق معاييره للعظمة على محمد ﷺ، خاصة معيار امتلاك الإخلاص والصدق والحكمة الذي هو من لوازم الرجل العظـيم ولا يكون الرجل عظيماً إلا به:(١)

" I wish you to take this as my primary definition of a Great Man. A little man may have this; it is competent to all men that God has made: but a Great Man cannot be without it... God has made many revelations: but this man too, has not God made him, the latest and newest of all? The inspiration of the Almighty giveth him, understanding; we must listen before all to him. This Mahomet, then we will in no wise consider as an Inanity and theatricality, a poor conscious ambitious schemer, we cannot conceive him too. The rude message he delivered was a real one withal; an earnest confusion voice from the unknown Deep. The man's words were not false, nor his workings here below: no Inanity and Simulacrum.

(1) Thomas Carlyle, On Heroes, p.40

أود أن تعرفوا أن هذا هو تعريف الرجل العظيم وحدّه الجوهري، صحيح أنها قد توجد في الرجل قليل القدر لكونها جديرة بالوجود في نفس كل إنسان خلقه الله، ولكنها من لوازم الرجل العظيم، ولا يكون الرجل عظيماً إلا بها..... وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدّها هو الرجل العظيم الذي علّمه الله العلم والحكمة، فوجب علينا أن نصغي إليه قبل كل شيء.

وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً هذا قط رجلا كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى أغراض شخصية من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أدّاها إلا حق صراح، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول.

كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفّق".

ولا ينبغي أن تفوتنا أهمية تقرير كارليل في عبارته السابقة أن الرجل العظيم محمداً ﷺ هو أحد آيات الله التي دلّل بها الله تعالى على وجوده، فمثل هذا التقرير الصارم الذي يربط بين شخص النبي العظيم الصادق المخلص محمد ﷺ وبين آيات الله الصادقة في الكون، هو الذي جعل من محاضرة كارليل عن النبي البطل محمد ﷺ نقطة مفصلية فارقة بين مرحلتين من مراحل الفكر الغربي حول نبي الإسلام؛ مرحلة الأسطورة والخرافة التي سيطرت عليها الروح العدائية، مرحلة العلم والحقيقة التي افتتحت منظوراً إيجابياً جديداً تجاه نبي الإسلام، كما قال مونتجمري وات Montgomery Watt [1] :

---

(١) مونتجمري وات هو المستشرق والمؤرخ الإنجليزي الإنجيليكاني عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبره، وهو حاصل على الدكتوراه في علم الكلام الإسلامي، وله عدد من المؤلفات عن الإسلام أشهرها: محمد في مكة، محمد في المدينة، محمد النبي ورجل الدولة، الوحي الإسلامي في العالم المعاصر.

" Since Carlyle lecture on Muhammad in Heroes and Hero-worship, the West has been aware that there was a good case to be made out for believers in Muhammad's sincerity.(١)

"منذ ألقى كارليل محاضرته عن محمد ضمن سلسلة محاضراته عن الأبطال وعبادة البطولة، أصبح الغرب على وعي بوجود أساس طيب للاعتقاد في إخلاص محمد ﷺ".

وبالتالى انفتح الباب أمام الدراسات المتخصصة حول نبي الإسلام والتي تنتهي إلى النتيجة نفسها التي انتهى إليها كارليل، وإن اختلف هدف المعالجة وأسلوبها، مثل الدراسة التي قام بها العلامة الألماني رودي بارت(٢) Rudi Paret مقرراً(٣) ":

" Mohammeds Groesse und Einmaligkeit zeigt sich ebean darin, dass er sich immer der menschlichen Gemeinschaft, der er angehoerte, verbunden fuehlte und auf sie einzuwirken bestrebt war. Nachdem er sich selber erst einmal zur Erkenntnis der goettlichen wahrheit durch gerungen hatte. Glaubte er sich verpflichtet, auch siene makkanischen lands leute und darueberhinaus alle Araber auf den weg des Heils zufuehren.

"إن عظمة محمد وتفرده تتجلى في كونه من ذلك الصنف من البشر الذي يميل إلى خدمة الناس ومساعدتهم،ويريد التأثير عليهم، فبعد أن امتلك الحقيقة الإلهية، أحسَّ أن الواجب عليه دعوة أبناء مدينته مكة وكل العرب إلى السير في طريق النجاة".

---

(1) Montgomery Watt, Muhammad AT MECCA, P.52. Oxford AT 1953

(٢) رودي بارت هو أستاذ اللغات السامية والدراسات الإسلامية بجامعة تيبنجن، ولد عام ١٩٠١م، وتوفي عام ١٩٨٣م، وله عدد من المؤلفات في مجال السيرة النبوية وعلوم القرآن، ولكن أهم أعماله على الإطلاق هو ترجمته لمعاني القرآن الكريم إلى الألمانية.

(3) Rudi Paret, Mohammed und der koran, S; 139, Kohlhammer verlag. Stuttgart.1957.

بل اتسع نطاق هذا الوعي الغربي الجديد بعظمة محمد ﷺ ليمتد إلى الصحافة والإعلام، إذ نشرت مجلة التايم المعروفة عدداً خاصاً عنوان غلافه الخارجي":Who were History's Great Leaders?" من هم قادة التاريخ العظماء؟ وفيه مقالة للمؤرخ الأمريكي بجامعة شيكاغو (وليام مكنيل William Mcneill) يقول فيها[1] :

" If you measure leadership by impact, then you would Have to Name Jesus, Buddha, Mohammed, Confucius, The Great Prophets of the world."

لو أنك قست الزعامة بمدى تأثيرها فإنك يجب أن تذكر المسيح وبوذا ومحمد وكونفشيوس على أنهم أنبياء العالم العظماء.

٢- أحد عظماء التاريخ:

انتقل فكر الغربيين المنصفين للنبي ﷺ من مجرد الإقرار بأنه نبي عظيم إلى مرتبة كونه أحد العظماء القلائل ذوي التأثير على مجريات التاريخ الإنساني، وقد تطلب انتقال النبي ﷺ إلى هذه المرتبة نشأة مجال الدراسات المقارنة لقدر تأثيره ﷺ، مع أقدار تأثير غيره من الشخصيات التاريخية.

وقد كانت أكثر هذه المقارنات مع الأنبياء الذين تصدروا لإبلاغ الرسالات السماوية المكلفين بها، وبالتالي يعزى الفضل في انتقال النبي ﷺ إلى هذه المرتبة لنتائج بحوث ودراسات مقارنة الأديان التي نشطت لدي الغرب متزامنة مع عصر الأنوار الأوربي الذي كان أميل وأكثر نزوعاً إلى الإنسانية وقبول الآخر فكرياً.

(1) TIME, July 15, 1974.

ويشير المستشرق الأمريكي كارل إيرنست[1] Carl w.Ernst في شهادته لمحمد ﷺ بأنه أحد عظماء التاريخ، إلى دور علم الأديان في الوصول إلى هذه النتيجة قائلاً[2]:

" We would not have it in its present form without the prophet Muhammad, and therefore I start without him. Nevertheless, the importance of Muhammad is not limited to those sources that can be dated with certainty to his own lifetime. He has served as an ongoing model for ethics, law, family life, politics and spirituality in ways that were not anticipated 1400 years ago. There are few people in history who have had a greater impact on humanity and it is through the historical elaboration of tradition that we must seed to understand that impact.

" لم يكن بإمكاننا الحصول عليه في صورته الحالية بدون النبى محمد ﷺ، وهذا سبب بدئي به ومع ذلك لم تكن أهمية محمد ﷺ مقصورة فقط على تلك المصادر التي ظهرت أثناء حياته إذ إنه خدم بوصفه نموذجاً مستمراً في الأخلاق، والنظام، والحياة العائلية، والسياسة، والروحانية بأساليب لم يسبق لها مثيل منذ ١٤٠٠عام. أشخاص قلّة كان لهم تأثير أعظم على البشرية؛ ولكي نفهم ذلك التأثير يجب علينا اللجوء للفحص التاريخي للتراث الديني."

وربما يكون من أهم الملامح المرتبطة بتصنيف النبي ﷺ في مرتبة أحد عظماء التاريخ إسهام الألماني هانز كينج[3] Hans Kueng بوصفه أول عالم

---

(١) هو كارل إيرنست المستشرق الأمريكي المعاصر تلميذ المستشرقة الألمانية الكبيرة آن ماري شمل، وهو يعمل أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة شمال كارولاينا الواقعة في تشابل هل في الولايات المتحدة الأمريكية، وله عدد من الدراسات الإسلامية.

(2) Carl Ernst, Following Muhammad, p.74, the University of North Carolina Press. Chapel Hill & London 2003

(٣) هو عالم اللاهوت الألماني المعاصر ذائع الصيت هانز كينج السويسرى المولد، الأستاذ بجامعة تيبنجن بألمانيا، صاحب المؤلفات الغزيرة التى تتجاوز مائة بحث ومقالة، وهو صاحب مشروعات فكرية ولاهوتية عديدة لعل أشهرها " الأخلاق العالمية" .

لاهوتي كاثوليكى في العالم يقوم- على حد عبارة كارل إرنست Carl Ernst - بمحاولة جدية لتفهم محمد ﷺ[1]:

" Ecumenical German theologian Hans Kueng was probably the first catholic to make a serious attempt to come to terms with Muhammad."

فشهادة هانز كينج المنصفة للنبي محمد ﷺ تأتي بجوانب متعددة القيمة والتأثير، فهانز كينج من كبار رجال اللاهوت الليبرالي الحر ذي الشعبية الجارفة في ألمانيا والنمسا وسويسرا، مما لا يخفي معه القيمة الدينية لرأيه، هو كذلك رأي معتبر يحمل كل خصائص المعرفة الصحيحة والبحث المنهجي الرصين؛ لأن هانز كينج ليس مجرد لاهوتي فحسب،بل أكاديمي صارم، وباحث عقلاني حرّ، ذو قدم راسخ في مجال الأديان وتاريخها وبحوثها والحوارات المثمرة بينها، مما أوجد لآرائه وكتاباته تأثيراً كبيراً أمكنه من مجابهة الكنيسة ومطالبتها الإقرار بعظمة النبي محمد ﷺ قائلاً[2]:

" Blicket man auf des"Gesandten Gottes" lebenswerk zurueck, so ist das Urteil der Muslime begreiflich: Dieser Muhammad hat wie sehr wenige Menschen vor und nach ihm Gewaltiges, ja Epochales geleistet und erreicht, das auch christliche Theologie und kirchen heute endlich vorbehaltlos anerkennen sollten.... Muhammad der grosse religioese Reformator, der Gesetzgeber und politische fuhrer, der Prophet schlechthin"

" عندما يعود المرء إلى الوراء ناظراً عمل رسول الله يجد حكم المسلمين بأن محمداً قد استطاع ما لم يستطع إلا النادر من البشر أن يتذلل لله وينجزه ويصل إليه، وهذا الحكم هو ما يجب اليوم على الكنيسة وعلى اللاهوت المسيحي الإقرار به أخيراً دون تحفظ.... محمد، المصلح الديني الكبير، المشرّع، والزعيم السياسي، النبي بجدارة مطلقة".

(1) Carl Ernst, Following Muhammad, p.13-14.
(2) Hans Kueng , Der Islam, S: 159. piper, Muenchen- zuerich 2006

وليس هانز كينج هو الاستثناء أو الصوت الوحيد في الإسهام اللاهوتي الذي يؤكد صدق العاطفة والشعور الديني لدى المنصفين في تصنيفهم النبيَّ محمداً ﷺ كأحد عظماء التاريخ، فذلك الإسهام اللاهوتي يقطع بخطأ من يحصر بواعث مواقف المنصفين من نبي الإسلام في النزعة العقلانية لدى طوائف العلمانيين من باحثي الغرب وأدبائهم ومفكريهم.

فاللاهوتيون كانت دوافعهم وراء البحث عن حقيقة محمد ﷺ الدينية لاشك دوافع لاهوتية رامية إما إلى إثبات تفوق اللاهوت المسيحي، أو البحث في مظاهر عدم أصالة النظم الدينية الأخرى.

ومن الأصوات ذات الخلفية والتاريخ اللاهوتي الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج Karen Armstrong [1]، والتي جعلت من العون الإلهي تفسيراً أوحد للنجاح الفذ الذي حققه النبي ﷺ، قائلة[2]:

" Divine aid seemed the only possible explanation for Muhammad's extraordinary Success."

" العون الإلهي فيما يبدو هو التفسير الوحيد المحتمل للنجاح الفذ الذي حققه محمد".

---

(١) كارين أرمسترونج باحثة بريطانية معاصرة في تاريخ الأديان لها عدد من المؤلفات عن النبي ﷺ مثل كتاب محمد نبي زماننا، ولها مؤلفات عن الإسلام والديانات الأخرعامة، وكانت أرمسترونج راهبة لم تغادر الدير إلا مؤخراً.

(2) Karen Armstrong, Muhammad A Biography of the Prophet, p.234. Victor Gollanc 7. London 1996.

ولا يقتصر تأثير الفكر اللاهوتي لدى أرمسترونج على ذلك فهى تجعل كذلك من الطابع الإلهي الخالص للقرآن الكريم أحد وجوه عظمة وتفرد الرسالة المحمدية، بقولها[1]:

" The only thing that made Muhammad's revelation different was that for the first time God had sent a messenger to the Quraysh and a scripture in their own language"

" الشيء الفريد الذي ميّز وحي محمد أن الله قد أرسل للمرة الأولى رسولا إلى قريش، وأنزل كتاباً مقدساً بلغتهم"

كما تجعل الإسلام والقرآن الكريم أهم وجوه عظمة النبي التي تضعه في مصاف أحد عظماء التاريخ. تقول[2]:

" If we could view Muhammad as we do any other important historical figure, we would surely consider him to be one of the greatest geniuses the world has known. To create a literary masterpiece, to found a major religion and a new world power are not ordinary achievements."

" إذا استطعنا النظر إلى محمد كما ننظر إلى الشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى، فمن المؤكد أننا سنعده أحد أعظم العباقرة الذين عرفهم العالم، فأن يأتي برائعة أدبية، ويؤسس ديانة عظمى، وقوة عالمية جديدة، فتلك إنجازات غير عادية."

ومن بين المعاصرين غير اللاهوتيين الذين وضعوا النبي محمداً ﷺ في مرتبة أحد عظماء التاريخ المستشرق الإنجليزي مونتجمري وات Montgomery Watt صاحب أغزر مؤلفات حول نبي الإسلام خاصة في ثلاثيته الشهيرة: محمد في مكة، محمد في المدينة، محمد النبي ورجل الدولة. وهو إن لم يكن من اللاهوتيين مثل هانز كينج وكارين أرمسترونج، إلا أنه أرجع نجاح

(1) Karen Armstrong, Muhammad. P.87
(2) Karen Armstrong, Muhammad. P.52

النبي في تبوّء هذه المرتبة كذلك إلى دور العوامل اللاهوتية بجانب العوامل الشخصية. يقول وات تحت عنوان أصل العظمة The foundation of Creation [1] :

" The more one reflects on the history of Muhammad and of early Islam, the more one is amazed at the vastness of his achievement. Circumstances presented him with an opportunity such as few men have had, but the man was fully matched with the hour. Had it not been for his gifts as seer, statesman, and administrator and، behind these, his trust in God and firm belief that God had sent him, a notable chapter in the history of mankind would have remained unwritten. It is my hope that this study of his life may contribute to a fresh appraisal and appreciation of one of the greatest of the "sons of Adam".

" كلما استرجعنا تاريخ محمد وتاريخ الإسلام المبكر تملكنا الذهول أمام عظمة هذا الإنجاز، ولاشك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها سوى للقليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً.

فلو لم يكن مستبصراً ورجل دولة وإدارة ولو لم يضع ثقته في الله، ويقتنع بشكل يقيني أن الله أرسله، لما كتب فصلاً مهمًا في تاريخ الإنسانية. ولى أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد، برجل هو من أعظم رجال أبناء آدم".

فهو يجعل من يقين النبي محمد ﷺ بنبوته، وبثقته في الله، وبدوره في تلقي الوحي، عوامل جوهرية لولاها ما تحققت له العظمة، ولولاها ما كان هذا التأثير الكبير في تاريخ الإنسانية".

(1) Montgomery Watt, Muhammad AT Medina, p.335. Oxford At the Clarendon Press. 1966.

ويبدو أن كارين أرمسترونج اللاهوتية قد تأثرت في إرجاعها عوامل عظمة محمد ﷺ إلى أمور دينية عقدية باعتمادها على مونتجمري وات بوصفه قيمة كبرى في الاستشراق المعاصر، وهى كثيرة الاقتباس من مؤلفاته والإشارة إليها.

لكن يبدو أن جوانب التأثير قد تخطت مجرد الإشارة والاقتباس إلى المتابعة في أصول الأفكار والروح العامة. ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن تصنيف النبي ﷺ في مرتبة أحد عظماء التاريخ أمر طارئ محدث قاصر على شهادات المنصفين المعاصرين، كما بدا في شهادة كارل إرنست، وهانز كينج، وكارين أرمسترونج، ومونتجمرى وات، بل إن ذلك التصنيف يضرب بجذور عميقة في تاريخ علماء الأديان ومؤرخي الحضارات، مثل جوستاف لوبون[1] Gustave Le Bon الفرنسي في دراسته لتاريخ الحضارة الإسلامية التي أسماها: حضارة العرب La Civilisation des Arabes ونشرت عام ١٨٨٤م ، وخصص فيها الفصل الأول من الباب الثاني لدراسة سيرة النبي محمد ﷺ؛ ليطرح بعد الانتهاء من فحص سيرة النبي ﷺ وأقواله وأفعاله تساؤلاً حول عظمة محمد ﷺ: أكان الوصول إلى تلك العظمة أمراً مستهدفاً من جانبه أم لا؟ يقول لوبون[2] :

" Lorsque Mahomet mourut, il avait obtenu ce resultat immense de reunir en une seule nation, obeisant a une seule croyance, et capable par suite d'obeir a un seul maitre, tous les peoples de l'Arabie. II serait

---

(١) جوستاف لوبون مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٤١م ، وله سلسلة من الكتب في تاريخ الحضارات مثل كتاب حضارة الهند، ولكن أشهر كتبه " حضارة العرب " الذي يعد من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية والإسلامية. وقد توفي عام ١٩٢١م.

(2) Gustave Le Bon, La civilization des Arabes, p.92. Librairie de Firmin-Didat Et C.Paris, 1884

inutile de rechercher si le resultat attaint fut bien celui que se proposait le prophete. Nous connaissons si peu les varies causes de la succession des evenements que nous devons nous contenter d'admettre, commele font habituellement les historiens, que les resultants ontenus par l'influence des grands homes sont reellement ceux qu'ils cherchaient a obtenir. On demontrerait facilement que la valeur de cette regle est contestable, mais ce serait sortir de mon cadre que de le faire ici."

" من العبث البحث في مسألة النتائج التي حققها محمد؛ أكانت مما استهدفه قبلا !؟ وإذا لم نكن من المختصين في مسألة حتمية عمل الأسباب في المسببات، فإننا مضطرون إلى مجاراة المؤرخين فيما ذهبوا إليه من أن ما بلغه أعاظم الرجال، ومنهم محمد، من النتائج إنما هو مما كانوا يسعون إلى تحقيقه، ورأي مثل هذا، وإن كان لا يسلّم به على علاّته، فإن الخوض في نقضه يخرجنا من موضوع هذا الكتاب."

وبعد أن يُبْدي لوبون Le Bon عدم قناعته بأن محمداً ﷺ كان يقصد من أعماله وإنجازاته تحصيل مرتبة العظمة وإدراكها، وأن تلك مسألة يحتاج نقضها بحثاً مستقلا لا يناسبه المقام، فإنه يقرر أن محمداً واحد من أعظم من عرفهم التاريخ على الرغم من إغفال المتعصبين والحاقدين الشهادة له بذلك. يقول لوبون Le Bon[1] :

" S'il faut juger de la valeur des homes par la grandeur des oeuvres qu'ils ont fondees, nous pouvons dire que Mahomet fut un des plus grands homes qu'ait connus l'histoire. Des prejuges religieux ont empeche bien des historiens de reconnaitre l'importance de son oeuvre; mais les ecrivains chretiens eux-memes commencent qujourd'hui a lui render justice. Voici comment s'exprime a son egard un des plus distingues d'entreux."

(1) Gustave Le Bon, La civilization des Arabes, p.93

" إذا قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد شرع بعض علماء الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني قد أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله"

أما الفرنسي إميل درمنغم[1] Emile Dermenghem فعلى الرغم من كونه ليس لاهوتياً، فإنه يرجع عظمة النبي ﷺ إلى أمور لاهوتية، ربما بسبب كونه أكثر المستشرقين قرباً من النصوص العربية والتراث الإسلامي خلال الفترة التي أمضاها في الجزائر. يقول درمنغم في كتابه The Life of Mahomet حياة محمد [2] :

" The very faults of the prophet prove that his unique and real grandeur come from God, from his supernatural inspiration. Without God he felt himself alone and weak."

" تدل هفوات النبي على أن عظمته الحقيقية والفذة قد أتته من الله ومن خلال الوحي إليه، فلولا الله لشعر أنه وحيد ضعيف."

ومع أن هذا النص يسمح لنا بإدراج درمنغم فيمن يصنف النبي ﷺ في مرتبة أرفع من مرتبة العظمة التي نعرض لها الآن، فإننا أدرجناه هنا لوجود نص آخر عن عظمة النبي ﷺ يعد أكثر بياناً لنوع المرتبة التي يريد إدراج النبي ﷺ فيها. يقول درمنغم[3] :

" His generosity in the days of his final triumph exhibited a greatness of soul rare indeed in the pages of history."

---

(١) اميل درمنغم مستشرق فرنسي شغل منصب مدير مكتبة الجزائر، وله عدة مؤلفات منها، حياة محمد، ومحمد والسنة الإسلامية، أروع النصوص العربية، سيرة الأولياء المسلمين، ذكريات الأمير عبدالقادر.

(2) Emile Dermenghem, The Life of Mahomet, p.250. George Routledge & sons.ltd. London 1930

(3) Emile Dermenghem, The Life of Mahomet, p.174

" مروءته وشهامته أثناء انتصاره النهائي (فتح مكة) تُظهر من عظمة النفس ما لا يوجد مثيله في التاريخ إلا نادراً.

فهذا النص أميل إلى وضع النبي ﷺ في مرتبة أحد العظماء القلائل الذين عرفهم التاريخ.

٣- أعظم عظماء التاريخ:

لا شك أن تصنيف النبي محمد ﷺ في مرتبة الأعظم بين بني البشر أمر مدهش من جهتين:

الجهة الأولي: المكان

فمحمد ﷺ هو الأعظم في الإسلام باصطفاء الله تعالى له وبإرساله رحمة للعالمين؛ ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وقد استطاع أن يقف أمام العالم أجمع داعياً إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونبذ كل عبادة سوى عبادته، وواجه في ذلك منفرداً صناديد قريش وكفرها وجهالاتها، وواجه عباد الأصنام والكواكب وغيرهم، وعاش حياته كلها في خدمة البشرية جمعاء، وجاء برسالة لو لم تكن دينا لكانت أسمى الأخلاق وأرقى التعاليم، وهذا أمر مسلّم به في الشرق المسلم.

لكن مثار الدهشة أن يأتي ذلك التصنيف من جهة الغرب المثقل بكاهل الفكر القروسطي وأسير الثقافة غير الودية تجاه نبي الإسلام.

الجهة الثانية: الزمان

قد يتبادر إلى الذهن أن بداية ذلك التصنيف ترجع إلى محاضرة توماس كارليل Thomas Carlyle عام ١٨٤٠م عن البطل النبي محمد ﷺ، عندما جعل البحث في معايير عظمة محمد التي جعلته جديراً باختياره نموذجاً للبطولة في

شكل النبي، عندما جعل ذلك يتمحور حول الوضع الذي وجد محمد ﷺ فيه نفسه من أجل أداء رسالته، وهو[1] :

" One man alone of the whole world"

" رجل واحد في مقابل جميع العالم"

فلما استطاع ذلك الرجل بتأييد الله له، وبصدق عزيمته، وبإخلاصه في دعوته أن يقف ضد الجميع وينتصر للحق، فإن ذلك هو الرجل الأنسب لاختياره أعظم العظماء، وإذا أضفنا إلى ذلك أن كارليل بمحاضرته عن البطل النبي كان هو النقطة المفصلية الفارقة بين مرحلة الفكر الأسطوري القروسطي وبين مرحلة الفكر التاريخي العقلاني حول نبي الإسلام. نظراً لما امتازت به المحاضرة من وضوح ومباشرة واستقلال وقوة في البرهنة والاستدلال.

لأجل ذلك كله فإنه من المدهش أن تكون بداية التصنيف أسبق من كارليل، والأكثر دهشة أن يكون أول مَنْ وضع النبي ﷺ في تلك المرتبة هو الفرنسي فولتير، ذلك لأن فولتير[2] هو صاحب واحدة من أكثر الأطروحات والكتابات القروسطية العدائية ضد النبي محمد ﷺ، وهي مسرحيته الشهيرة: Le fanatisme ou Mahomet le prophete التعصب أو النبي محمد، التي عرضت في مدينة ليل Lille بفرنسا عام ١٧٤١م، وعندما عرضت في باريس تسببت في فضيحة توقفت بعدها عن العرض بعد ثلاثة أيام؛ نظراً لأن النقاد والمراقبين

(1) Thomas Carlyle, On Heroes, p.53

(٢) فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) الكاتب الفرنسي الذي ارتبط اسمه في أوربا بالثورة ضد الجمود والتعصب والخرافة، وأصبح محلا للنقد من الكتاب والمفكرين ورجال الدين والسلطات الرسمية، له مؤلفات عديدة في الفلسفة والتاريخ والمسرح والشعر وربما يكون أحد أسباب قيام الثورة الفرنسية بوصفه أحد أعلام حركة التنوير.

قد اكتشفوا أن شخصية النبي ﷺ قد اتُخذت في المسرحية ستاراً لنقد الكنيسة الكاثوليكية ورجالها.

ويزيد الأمر دهشة أن تلك المسرحية المشئومة قد تُرجمت للغة الألمانية وعرضت على مسرح فايمار Weimar عام ١٧٩٩م، وكان القائم على تلك الترجمة أعظم شعراء ألمانيا على مدار تاريخها وواحد من أعظم شعراء أوربا الشاعر Geothe جيته[١]؛ نزولا على طلب راعيه الأمير كارل أوجست إحياء ليوم ميلاد والدته الدوقة لويزا، مما جعل جيته عرضة لتأنيب صديق عمره هردر G.Herder وزوجته كارولين هردر Caroline Herder اللذين ثارا عندما شاهدا العرض ثورة عنيفة على خيانة جيته لصدقه مع نفسه عندما قدم النبي محمداً بهذه الطريقة المنافية للحقيقة التاريخية.

ومثار الدهشة هنا أن مؤلف المسرحية (فولتير) ومترجمها للألمانية (جيته) كليهما قد صحّحا خطأيهما، وقاما بدراسة سيرة النبي ﷺ دراسة علمية تاريخية قادتهما إلى أن يكونا رائدي حركة التنوير الغربي التي أعادت للنبي ﷺ اعتباره في الغرب في مواجهة فكر الجهالة القروسطي.

ففي مقالته الموسومة بـ: Essai sue l'histoire generale et les moeurs et l;espirt des nations محاولة في التاريخ العام لأخلاق الأمم وروحها، المنشورة عام ١٧٥٦م امتدح فولتير النبي محمداً ﷺ من خلال دراسة مقارنة مع سيرة أصحاب الشرائع ومؤسسي الديانات، معتبراً النبي ﷺ أحد المشّرعين

---

(١) جيته الأديب الالماني الشهير، ولد في فرانكفورت عام ١٧٤٩م، وتوفي ١٨٣٢م، وقد تأثر بالفكر الإسلامي، وكانت آراؤه أكثر من إيجابية في الإسلام ونبيه وكتابه وحضارته،ذلك الذي ظهر جليا في أشهر مؤلفاته " الديوان الشرقى للشاعر الغربي"

الثلاثة العظام في تاريخ العالم. ويتدرج فولتير في مديحه، ليفضّل النبي محمداً ﷺ على المسيح عيسى في بعض جوانب الرسالة والصفات الشخصية، قائلاً[1] :

" De moins Mahomet a ecrit et combattu; et Jesus n'a su ecrire, ni se defender. Mahomet avait le courage d'Alexandre avee l'avec l'esprit de Numa; et votre Jesus a sue sang et eau des qu'il a ete condamne par ses juges. Le Mahometisme n'a jamais change, et vous autres vous avez change vingt fois toute votre religion"

" إن أقل ما يقال عن محمد إنه قد جاء بكتاب وجاهد، أما عيسى فلم يترك شيئاً مكتوبا، ولم يدافع عن نفسه، لقد امتلك محمد شجاعة الإسكندر وحكمة نوما، أما عيسى فقد نزف دماً بمجرد أن أدانه قضاته، ومحمد لم يغيّر رسالته، لكنكم ورجال دينكم غيرتم دينكم عشرين مرة"

ثم يصل بمديحه إلى الذورة، إلى أقصى مدى يمكن أن يصل إليه غربي، فيقرر لأول مرة في تاريخ الغرب أن محمداً ﷺ أعظم رجالات الإنسانية. يقول فولتير[2] :

" Ce fut certainement un tres-grand home...Conquerant. Legislateur, monarque et pontife, il joua le plus grand role qu'on puisse jouer sur la terre aux yeux du commun des homes"

" لقد كان بالتأكيد رجلا عظيماً جدا... ، مشرعا ، فاتحا ، حكيما ، إمامًا. لقد قام بأعظم دور يمكن أن يقوم به إنسان على ظهر الأرض."

كما كان الشاعر الكبير (جيته) هو من نقل مسرحية فولتير المسيئة للنبي ﷺ من الفرنسية للألمانية، فإنه كان كذلك من نقل تصنيف النبي ﷺ في مرتبة أعظم رجال الإنسانية من فرنسا إلى بقية بلدان أوربا من خلال أشعاره وكتاباته التي فاضت بالمديح والثناء العاطر على الإسلام وكتابه ورسوله خاصة

(1) Voltaire, Euvres completes de Voltaire(Kehl) 1785-1789. vol.36 p.378
(2) Voltaire, (Euvres completes) vol.16. p.385

في مؤلفه العظيم " الديوان الشرقي للمؤلف الغربـــي"West-oestlicher Diwan الذي سنتوقف عنده طويلا في المبحث الثاني والثالث إن شاء الله.

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى مقولته الشهيرة التي جعل فيها محمداً ســيد العالم ، قائلا[1]:

" Und so muss das Rachet scheinen was auch Mohamet gelungen; Nur durch den Begriff des Einmen Hat er alle welt bezwungen"

" وهكذا يجب أن يسطع الحق الذي بَلَغه محمد كذلك، فبالتوحيد وحــده ساد العالم"

وإذا كان جيته الألماني قد تبنى تصنيف محمد ﷺ في مرتبة الأعظم في تاريخ الإنسانية، بوصفه مشروعاً فكرياً، واختياراً أيديولوجياً، وقناعــة ذاتيــة تعددت مظاهر وأشكال وأدوات التعبير عنه فــي هيئــة: أشــعار، خطابــات، مكاتبات، تصريحات وتقريرات قصيرة وموجزة ومعبرة.

فإن قامة فكرية وأدبية كبرى أخرى مثل الــشاعر الفرنــسي الكبيــر ألفونسو لامــارتين Alphonse de Lamartine فــي كتابــه تــاريخ الأتــراك: Geschichte der Turkie عام ١٨٥٤م، قد نفى بعزم وبحــزم احتمــال وجــود شخص آخر في العالم يجرؤ على مقارنة محمد في مرتبة عظمته بأى مخلــوق في تاريخ الإنسانية؛ لأنه الأعظم على مدار التاريخ بلا منازع، يقول لامارتين Lamartine [2] :

" Nie hat ein mensch in kurzerer zeit eine so gewaltige und dauerhafte Revolution in der Welt hervorgebracht [...] Wenn die groBe des Vorhabens, die Durftigleit der Mittel und das AusmaB des Erreichten der dreifache MaBstab sind, woran menschliches Genie gemerren wird, wer wurde es da wagen, in menschlicher Hinsicht eine

(1) Geothe , west Oestlicher Diwan
(2) Alphonse de Lamartine, Geschichte der Turkei.1854 p. 277

groBe personlichkeit der modernen Geschichte mit Mohanmed zu vergleichen? [...] Philosoph, Redner, Apostel, Gesetzgeber, Kreiger, Uberwinder von Ideen, Wiederaufrichter, rationaler Dogmen einer Religion ohne Bilder, Grunder von zwanzig weltlichen imperien und eines geistlichen, voila, das ist Mohammed! An welchem MaBstab auch immer man menschliche GroBe misst; Welcher Mann war groBer al ser? "(Alphonse de lamartine in seiner Geschichte der Turkei, erschienen 1854; Lamartine 1854, S.277 u. 280)

" لم يحدث في العالم أن قام إنسان في مثل هذا الوقت القصير بهذا التغيير الهائل والمستمر... فإن كانت عظمة الغاية وقلة الوسائل، والنتائج المذهلة، هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان، فمن الذي يجرؤ على مقارنة أي رجل عظيم في التاريخ الحديث بمحمد؟.... حكيم، وخطيب، ورسول، ومشرع، ومحارب، وهادم للأفكار الخاطئة، ومحيي المعتقدات العقلانية، ومحيي العبادة بلا أصنام ولا صور، ومؤسس عشرين إمبراطورية دنيوية وإمبراطورية واحدة روحية.

ذلكم هو محمد، وبالنظر إلى كل المقاييس التي يمكن أن تقاس بها عظمة البشر يحق لنا أن نسأل : هل يوجد أي إنسان أعظم منه!؟"

ومن فرنسا وألمانيا انتقل تصنيف النبي محمد ﷺ في مرتبة أعظم البشر إلى بريطانيا خلال عصر الأنوار. فظهر عام ١٨٧٥م في لندن كتاب في تاريخ الفكر الأوربي بعنوان A History of the Intellectual Development of Europe تاريخ تطور الفكر الأوربي لمؤلفه الدكتور جون وليم درابر طبيب ودكتور في الحقوق John William Draper وفيه يؤرخ لمولد النبي ﷺ قائلا[1] :

" Four years after the death of Justinian A.D.569, was born At Mekkah, in Arabia the Man who, of all Men Exercised the Greatest influence upon the Human Race...Mohammed."

(1) John William Draper.M.D.UD, A History of the Intellectual Development of Europe. London 1875

"بعد أربع سنوات من وفاة يوستينياس عام ٥٦٩ بعد الميلاد، ولد في مكة في جزيرة العرب الرجل الذي كان له من بين جميع الرجال أعظم تأثير على الجنس البشري، محمد".

ثم يقطع الأديب الكبير بوزورث سميث[١] Bosworth Smith في كتابه Mohammed and Mohammedanism محمد والمحمدية، بتفرد النبي ﷺ في تاريخ البشرية، قائلاً[٢] :

" By a fortune absolutely unique in History, Mohammed is a threefold founder of a nation, of an Empire and of A Religion"

" من حسن الحظ إنه لأمر فريد على الإطلاق في التاريخ، أن محمداً مؤسس ثلاثة أشياء: الأمة والإمبراطورية والدين."

ويبدو أن بريطانيا قد أبت هي الأخرى إلا أن تمثلها قامة عملاقة في تصنيف محمد ﷺ في مرتبة أعظم العظماء، شأنها في ذلك شأن فرنسا وألمانيا.

فكان جورج برنارد شو[٣] George Bernard Show أديب بريطانيا الكبير ذو المؤلفات العديدة حول الإسلام، صاحب دعوة جديدة إلى تطوير لقب أعظم العظماء إلى لقب جديد يعبر عن قيمة الدور الذي قام به النبي محمد ﷺ لأجل خير البشرية وهو لقب (منقذ البشرية). يقول برنارد شو[٤]:

" I have studied him-The wonderful man-and in my opinion far from being an Antichrist, he must be called the saviour of Humanity"

---

(١) بوزورث سميث، أديب إنجليزى كبير، ولد في عام ١٨٣٩م، وله بحوث مهمة في التربية والتاريخ وقد توفي عام ١٩٠٨م

(2) Bosworth Smith, Mohammed and Mohammedanism, London 1946

(٣) جورج برنارد شو، أديب ومفكر إنجليزي، ولد في أيرلندا ١٨٥٦م وتوفي ١٩٥٠م، من مؤلفاته "محمد عند علماء الغرب"، " الإسلام في ضوء التشيع" ، " عظمة الإسلام".

(4) George Bernard Show, The Genuine Islam. Vol.1. No.8.1936.

" لقد درست الرجل الفذ، وفي رأيي أنه يجب أن يُدْعى منقذ البشرية، فهو بعيد كل البعد من أن يدعى ضد المسيح"

ولا يمكن مغادرة المملكة المتحدة دون الإشارة إلى تصنيف المستشرق الإنجليزي روم لاندو[1] Rom Landau يقول روم لاندو[2]:

" When Muhammad died in 632, the success of Islam completely vindicated the faith of Khadijah in the revelation that her husband had received, and the new monotheistic creed was on the road to spiritual and physical conquest unparalleled in human history"

" عندما توفي محمد عام ٦٣٢م كان في نجاح الإسلام التام ما زكّى إيمان خديجة بالوحي الذي تلقاه زوجها، وكانت العقيدة التوحيدية الجديدة في سبيلها إلى القيام بفتح روحي ومادّي لا يضارعه أي فتح في التاريخ البشري."

ومن المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة بلد العجائب والغرائب وزعيمة العالم المعاصر انتقل تصنيف النبي ﷺ في مرتبة أعظم عظماء الإنسانية نقلة نوعية تماثل النقلة التي أحدثها كتاب توماس كارليل عن البطولة والأبطال.

وذلك لأن التصنيف الأمريكي قد حمل سمات حلّقت به عاليا وجعلته يماثل تأثير تصنيف كارليل، وتتمثل السمات في:

١-التاريخانية أي الإطار التاريخي المقارن الذي جاء فيه التصنيف من خلال التتبع التاريخي للحضارات ومشيديها والأفكار والمخترعات والمنجزات وصانعيها، والأديان والمذاهب ومؤسسيها، والعلوم والمعارف ومبدعيها.

---

(١) روم لاندو، مستشرق إنجليزي وأخصائي في تاريخ العرب والحضارة الإسلامية وكان أستاذ الدراسات الإسلامية والشمال الافريقي في جامعة المحيط.

(2) Rom Landau , Islam and the Arabs, p.25. George allen & unwin ltd. London1958

٢-الاستقلال حيث جاء هذا التصنيف في إطار التصدي لمهمة استقصاء أعظم رجال الإنسانية.

٣-الأكثر انتشاراً لأن أوعية نشره كانت الأوسع انتشاراً والأكثر شهرة.

وكان صاحب التصنيف الأول هو المؤرخ الأمريكي الأشهر بين مؤرخي الحضارات في العالم ول ديورانت[١] Will Durant في كتابه الأشهر بين كتب تاريخ الحضارات: قصة الحضارة The story of civilization في المجلد المسمى: عصر الإيمان The age of faith.

وتكمن قيمة شهادة ول ديورانت وشهادته في كونها نتيجة بحث ودراسة استمرت نصف قرن من الزمان شملت تاريخ الحضارات الإنسانية المتعاقبة ورجالاتها وأبطالها وأفكارها وعقائدها؛ كما أنها دراسة توفر لها ما لم يتوفر لبحوث ودراسات أخر من جهة القدر الكبير من الكتب والمخطوطات والمصادر الإسلامية وغير الإسلامية التي نُشرت وحقِّقت، مما مكَّن ول ديورانت Will Dutant من إصدار حكم موضوعي على أسس علمية راسخة. يقول ديورانت[٢]:

" If we judge greatness by influence, he was one of the giants of history. He undertook to raise the spiritual and moral level of a people harassed into barbarism by bear and foodless wastes, and he succeeded more completely than any other reformer, seldom has any man so fully realized his dream. He accomplished his purpose through religion not only because he himself was religious, but because no other medium could have moved the Arabs of his time"

---

(١) ول ديورانت مؤرخ أمريكي شهير ولد عام ١٨٨٥م وتوفي عام ١٩٨١م، من أعظم مؤلفاته " قصة الحضارة" في ٤٢ مجلداً، وقد استغرق تأليفة مدة خمسين عاماً تقريباً.

(2) Will Durant, The story of civilization vol:4 The age og faith. P.174, simon and Schuster New York 1950.

" إذا حكمنا على العظمة بقدر ما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ. فقد أخذ على نفسه أن يرتقي بالمستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به حرارة الجو وجدب الصحراء في دياجير الظلام. وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يقاربه فيه أي مصلح أخر في التاريخ كله، فقلّ أن تجد إنساناً غيره قد حقّق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه."

وقد يظن ظان أن نص ديورانت يضع النبي في مرتبة أحد العظماء وليس أعظم العظماء، لكن نهاية النص تؤكد على أن مقصده مرتبة أعظم العظماء، وذلك ما أكّده مرة أخرى في الفصل الذي عقده عن القرآن والأخلاق، قائلا[1]:

" No reformer ever more actively taxed the rich to help the poor . Every will was expected to leave something to the poor; if a man died intestate his natural heirs were directed to give a part of their inheritance to charity."

" ولسنا نجد في التاريخ مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء، وكان يحضُّ كل مُوْصٍ بأن يخصص من ماله جزءاً للفقراء، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير."

وجاء التصنيف الأمريكي الثاني في المنبر الأوسع انتشاراً في العالم وهو مجلة تايم الأمريكية في عددها الذي خصصته للإجابة عن السؤال الشائك:

(1) Will Durant, The story of civilization Vol.4. p.180

مَنْ هم أعظم قادة التاريخ البشري؟ وقد تصدى جولز ماسيرمان[1] Jules Masserman للجواب عن السؤال الشائك استناداً إلى عدد من المعايير العلمية التي سنعرضها لاحقاً في المبحث التالي من كتابنا، ويأتي تصنيف ماسيرمان على قدر من الأهمية والخصوصية لوجوه:

أولها: أنه اختصاصي في علم النفس والتحليل النفسي وهى كلها علوم وأمور ذات تعلق بالوحي من جهة الوعي به وطرائق تلقيه واستقباله والظواهر المتعلقة بذلك وهى مسائل كانت محلاً للمطاعن والشبهات المثارة حول رسول الإسلام ﷺ.

الثاني: أن صاحب التصنيف يهودي غربي مما يعيد إلى الواقع التواصل في الحق بين المنصفين القدامى من أحبار اليهود مثل عبدالله بن سلام وغيره الذين أنصفوا رسول الإسلام ثم انضموا إلى ركاب الحق معه، وبين المنصفين المعاصرين مما يؤكد وحدة الحق وأحاديته، وأن النفس إذا ارتقت فوق تحيزاتها لا تملك إلا الانصياع له.

الثالث: أن الشرفاء والشجعان لا يخلو منهم زمان أو مكان، إذ من الصعب أن تخرج بتصنيف يقدم محمداً ﷺ على موسى وعيسى في وطن مثل أمريكا، ولدى إعلام مثل إعلامها، وبين جماعات ضغط مثل جماعاتها، مما قد يكلف الإنسان الكثير.

وقد أجاب ماسيرمان Massermon عن السؤال الشائك بالجواب التالي[2]:

---

(١) جولز ماسبرمان محلل نفسي أمريكي، أستاذ في علم النفس بجامعة شيكاغو.

(2) TIME, July 15, U.S..A 1974

" Leaders must fulfill three functions.... Provide for the well-being of the led ،provide a social organization in which people feel relatively secure, and provide them with one set of beliefs.

People like Pasteur and Salk are leaders in the first sense. People like Gandhi and Confucius on one hand, and Alexander, Caesar and Hitler on the other, are leaders in the second and perhaps the third sense. Jesus and Buddha belong in the third category alone.

Perhaps the Greatest leader of all times was Mohammed, who combined all three functions.

To a lesser degree Moses did the same."

" يجب على القادة استيفاء ثلاث مهام:

١. توفّر التكوين القيادي الصحيح في شخص القائد.

٢. تهيئة النظام الاجتماعي الذي يحقق الأمن والأمان للناس.

٣. إمداد الناس بمجموعة موحّدة من المعتقدات.

إن أمثال باستير وسالك كانوا قادة بالمفهوم الأول، وأناساً مثل غاندي وكونفوشيوس من جهة، والإسكندر وقيصر وهتلر من جهة أخرى كانوا قادة بالمفهوم الثاني وربما الثالث، أما عيسى وبوذا فينتمون إلى العظمة من النسق الثالث وحده.

وربما يكون أعظم القادة في كل العصور هو محمد الذي جمع بين المهام والمفاهيم الثلاثة كلها. وقد فعل موسى الشيء نفسه بدرجة أقل."

أما التصنيف الأمريكي الأشهر والأوقع؛ لكونه الأكثر حداثة؛ ولكونه الأكثر تحديدا واختصاصا بمسألة تصنيف العظماء وتحديد أعظمهم، وذلك من

خلال دراسة مستقلة في الموضوع ذاته تحت العنوان نفسه، فهو تصنيف مايكل هارت[1] Michael H.Hart في كتابه:

The 100, A Ranking of the Most influential Persons in History

المائة: تصنيف الأشخاص الأكثر تأثيراً في التاريخ.

وإذا كان الأمريكي كارل إرنست قد وجد صعوبة في نشر كتاب إيجابي عن محمد ﷺ، فكم هو هائل قدر المصاعب التي تواجه كتاباً يتضمن تصنيفاً هو الأبرز والأعلى والأدق إعلانا لشخص الأعظم في تاريخ البشرية رسول الإسلام محمد ﷺ.

ولما لم يكن ذلك بالأمر الخافي أو الملْبس أو الهين فقد عبر عنه مايكل هارت بوضوح في صدر كتابه وتصنيفه قائلاً[2]:

"My choice of Muhammad to lead the list of the world's most influential Persons may surprise some readers and may be questioned by the others, but he was the only man in the history who was supremely successful on both the religious and secular levels.

Of humble origins. Muhammad founded and promulgated one of the world's great religions, and became an immensely effective political leader .Today, thirteen centuries after his death, his influence is still powerful and pervasive."

" إن اختياري محمداً؛ ليكون على رأس قائمة الأشخاص الأعظم تأثيراً في العالم قد يُدهش بعض القراء، وقد يثير التساؤلات لدى آخرين، لكنه كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي حقق النجاح الأسمى على المستويين الديني والدنيوي

---

(١) مايكل هارت، هو عالم الفلك والرياضيات الأمريكي المعاصر، يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية، حصل على الدكتوراه في علم الفلك من جامعة برنستون عام ١٩٧٢م

(2) Michael Hart, The The 100, A Ranking of the Most influential Persons in History, p.33. citadel press Secaucus. New Jersey 1987.

كليهما. فعلى الرغم من النشأة المتواضعة أسس محمد ونشر أعظم الأديان في العالم، وأصبح واحداً من قادة العالم السياسيين العظام؛ واليوم بعد مرور ثلاثة عشر قرناً على وفاته لا يزال تأثيره قوياً وعارماً.

بعد أن بيّن مايكل هارت صعوبة الإعلان والنشر لمثل هذا التصنيف الذي يضع محمداً على رأس قائمة عظماء العالم أخذ في استعراض مبرراته ومعاييره التي جعلته يضع محمداً في صدارة قائمة تضم المسيح عيسى، وذلك أمر ليس بالهيّن في وقت صدور الكتاب، فكيف يكون الحال لو أن هذا الكتاب قد تأخر ظهوره إلى ما بعد الحادي عشر من سبتمبر وحقبة الحرب على الإرهاب!؟.

وبعد أن يقدم مايكل هارت معاييره وأدلته الثبوتية التي يبرهن من خلالها على تصنيفه، يقرر في حسم تفرد النبي محمد ﷺ في عظمته وتحليقه بتلك العظمة فوق متناول جميع العبر، قائلا[1]:

" We see, then, that the Arab conquests of the seventh century have continued to play an important role in human history, down to the present day. It is this unparalleled combination of secure and religious influence which I feel entitles Muhammad to be considered the most influential single figure in human history."

" نحن نرى – لذلك – أن الفتوحات العربية التي تمت في القرن السابع استمرت تلعب حتى يومنا هذا دوراً هاماً في تاريخ البشرية، وأن هذا الاتحاد الفريد الذي يجمع بين التأثير الديني والدنيوي معاً يستوجب علينا أن نعدّ محمداً الشخص المنفرد الأعظم تأثيرا في تاريخ البشرية."

(1) Michael Hart, The 100, p. 40

المطلب الثاني: معايير عظمته ﷺ

إذا كان المنصفون قد أجمعوا على عظمة محمد ﷺ فإن ذلك الإجماع يزيد من قيمته تلك المعاير الدقيقة التي وضعها المنصفون واستندوا إليها في الحكم بعظمة محمد ﷺ بعد أن طبقوها تطبيقاً صارماً.

ولم تكن الدقة وحدها هى السمت الوحيد الذي ميّز معايير الحكم الغربي بعظمة رسول الإسلام، بل كانت هناك خاصتان أخريان ضمنتا لتلك المعايير سلامة الحكم وصحته المستند إليها، وهما:

الأولى: الموضوعية:

لاشك أن الموضوعية وقابلية التحقق هي أهم ما يمكن أن يتميز به معيار، أو قانون، أو أساس ما، لأن ما لا يمكن التحقق من وجوده، أو من آثاره، أو من سلامته، يظل أمراً منتمياً إلى عالم النظرية أو الخيال. لذلك استند المنصفون إلى الآثار والمنجزات الواقعية الملموسة لرسالة النبي ﷺ في حكمهم بعظمة النبي ﷺ، ولم تكن تلك الآثار مادية دنيوية فحسب، بل روحية دينية كذلك، وقد وفّرت هذه الآثار والمنجزات لمعايير عظمة النبي ﷺ عنصر الصحة والسلامة؛ لكونها جسّدت الموضوعية في تلك المعايير، وكشفت عن قابلية تحققها في عالم الواقع الملموس والحي.

الثانية : التنوع :

فقد تعددت تلك المعايير وتنوعت تنوعاً كبيراً يرجع إلى تباين، وتعدد اهتمامات، واختصاصات، وطبائع الغربيين الذين قاموا على دراسة سيرة النبي ﷺ ورسالته، ما بين لاهوتي، ومستشرق، ومفكر، ومثقف، ومؤرخ، وفيلسوف، وأديب، وعالم أديان، وعالم تجريبي، أو عالم رياضيات.... إلخ فقد أدى التنوع

والتعدد في تخصص المهتمين بسيرة النبي ﷺ إلى توسيع المنظور، والقيمة، والأسس التي يحتكمون إليها في القول بعظمته ﷺ.

ولاشك أن ذلك يعنى شدة وضوح تلك العظمة وشمول جوانبها بحيث يسهل إدراكها على كل من التمسها أيًّا كان اهتمامه واختصاصه، وأيًّا كان الجانب الذي ينظر إليه في سيرة النبي ﷺ.

وسوف نحاول رصد تلك المعايير متوخين تحقيق غرضين، أولهما: تصحيح الفهم المغلوط حول تلك المعايير من خلال الظن بأنها معايير دنيوية صدرت عن علمانيين لادينيين، ومن ثم فهي ليست جديرة بالحكم على صاحب رسالة إلهية وشريعة ربانية، والثاني: محاولة الوقوف على قدر التميز والتنوع الذي اختصت به تلك المعايير. فقد تمحورت تلك المعايير في محورين كبيرين أفسحا المجال وفتحا الباب واسعاً أمام التنوع والتعدد وهما المحور الديني والمحور الحضاري الإنساني.

تقول كارين آرمسترونج Karen Armstrong [1]:

" Muhammad's was an extraordinary achievement.He had not relied simply on divine inspiration but, according to the Qu'ranic principle, he had used all his natural resources and considerable personal genius to carry the day."

" لقد أنجز محمد إنجازاً فذاً، فلم يستند فقط إلى الوحي الذي أنزله الله عليه، بل إنه وظّف كل موارده الطبيعية وعبقريته الشخصية الفائقة طبقاً للمباديء القرآنية إلى أن تمكن من تحقيق النجاح."

لذا لابد من أجل الإلمام بتلك المعايير ومدى تنوعها من ضرورة تناولها من خلالها بعديها: الديني والحضاري الإنساني، وذلك على النحو التالي:

(1) Karen Armstrong, Muhammad, p. 349

أولاً: المعيار الديني:

إن الحضور القوي للمعيار الديني في الحكم بعظمة النبي محمد ﷺ قد شمل جانبين:

الجانب الأول: رسالة النبي:

فقد أبرز المنصفون منذ البداية دور الرسالة المحمدية والدعوة إليها كمعيار للحكم بعظمته، بل إن رودى بارت يجعل ذلك الدور هو مكمن عظمته ﷺ، قائلاً[1]:

" Muhammeds Groesse und Einmaligkeit zeigt sich eben darin, dass er sich immer der menschlichen Gemeinschaft,der er angehoerte, verbunden fuehlte und auf sie einzuwirken bestrebt war.Nachden er sich selber erst einmal zur Erkenntnis der goettlichen wahrheit durchgerungen hatte, glaubte er sich verpflichtet, auch seine mekkanischen landsleute und darueber hinaus alle Araber auf den weg des Heils zufuehren."

" تكمن عظمة النبي محمد وتفرده في نزوعه وتطلعه إلى العمل على مساعدة المجتمع الإنساني المحيط به، فبعد تلقيه وامتلاكه الحقيقة الإلهية، وجد لزاماً عليه الأخذ بيد قومه المكيين وكل العرب إلى طريق النجاة والخلاص."

وتضيف كارين آرمسترونج Karen Armstrong بُعداً جديداً إلى دور الدين في الحكم على عظمة النبي ﷺ، بإسنادها أسباب عظمة محمد ﷺ إلى العون الإلهي. تقول آرمسترو[2]:

"Divine aid seemed the only possible explanation for Muhammad's extraordinary Success"

(1) Rudi Paret, Muhammed und der Koran,s: 139
(2) Karen Armstrong, Muhammas , p.249

" كان العون الإلهي فيما يبدو هو التفسير الأوحد للنجاح الفذ الذي حققه محمد."

ويؤكد إميل درمنغم Emile Dermenghem أن الدين إذا كان أساس تقدير عظمة الأنبياء فإن محمداً ﷺ له خصوصية في ذلك؛ نظراً للحالة الدينية التي كان عليها العالم وجاء محمد ﷺ لإصلاحها. يقول درمنغم(1):

"Prophets are sent into the world exactly as the great forces of nature, both beneficial and terrible in their effects. They are like the sun and the rain, the winter tempests in Arabia that tear up the soil only to cover it again with a carpet of greenery in a few days' time. We must judge them by their fruits. The best fruits are hearts and minds that have been pacified, wills that have been strengthened, pains borne with patience, moral mounded to the pristine heavens.

Although alone, without moral or material support, opposed by the earthly spirit, prophets carry with them the secret of the greatest liberation; for it is better to disobey man than to disobey God before whom all are equal and should bow down; the spirit should be given preference over the letter. Ignorance of all things save absolute truths, not so much illiterate as pure, natural and supernatural, freed from all prejudices, inspired either by the intelligence or the heart, a perfect prophet and simple soul stepped forth to explain to the learned what they had been discussing, to straighten out the tortuous roads in which the so-called wise men had lost their way. In listening to this prophet's inspired discourse and his parable suited to the period, men again felt themselves in contact with surrounding mysteries, humbled themselves before God and learned how to arrange their fleeting lives so as to either satisfy or disobey him, therein.

Finding a living rule such as neither the advice of philosophers nor heads of state could give.Mahomet appeared on the scene at one of the darkest periods in all history, when all the civilizations, from Merovingian Gaul to India, were falling to ruin or were in a state of troubled gestation.

(1) Emile Dermenghem , The Life of Muhammed, p.247-248

" شأن الأنبياء في العالم كشأن قوى الطبيعة الكبيرة الهائلة النافعة، كشأن الشمس والمطر، كشأن عواصف الشتاء التي تهز الأرض وتثيرها لتتزين ببساط أخضر في بضعة أيام. يُقدَّر الأنبياء بما أسفرت عنه رسالاتهم من النتائج، وأحسن شهادة لهم ما يورثونه من راحة العقول وسكينة القلوب، وشدِّ العزائم والصبر على الشدائد، وشفاء الأخلاق المريضة، والأدعية، والصلوات التي تصَّعد في السماء.

يأتى الأنبياء، وهم الذين لا حول لهم ولا معين، وهم الذين يقاتلهم الناس غروراً بِسِرِّ الحرية العليا، فيقولون خيرٌ للإنسان أن يعصى الناس من أن يعصى الله الذى يتساوى الجميع أمامه وحده، والذى يجب على الجميع أن يسجدوا له دون سواه، ويقولون إن المقصد والمعنى أفضل من اللفظ والمبنى.

قام محمد، الأمِّيُّ الجاهل لكل ما لا يمت إلى العلم المطلق بصلةٍ، والنقيّ، الفطريّ، الكامل، الطليق من فساد العقل والقلب، يدعو العلماء ليتفقهوا ما يقولون ويُقوِّمُ ما يتيه فيه الحكماء من معوج الطرق.

فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى إليه به ولأمثاله الملائمة لروح الزمن(إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم، خاشعين لله عالمين كيف يسلكون أحد النجدين، مهتدين إلى مبدأ حيٍّ، ناطق، لا يجدون مثله في نصائح الفلاسفة وآراء أقطاب السياسة.

وكان ظهور محمد في دور من أشد أدوار التاريخ ظلاماً، في دور كانت الحضارات التى قامت في البندان الممتدة من بلاد الغول إلى بلاد الهند مضطربةُ متداعية."

ويجعل جوستاف فون جرونباوم Gustave E. Von Grunebaum الدين على رأس العوامل التي أدت إلى نجاح محمد ﷺ وعظمته، قائلا:[1]

"The reason for Mohammed's success were many and varied, some purely political and some due to unexpected assistance of fortune. But the basic causes of his appeal to his contemporaries without which no political constellation, however favorable, and no stroke of luck, however dazzling, could have stabilized his work would seem to be these:-

1. His was the most elaborate and the most consistent religious system over developed by an Arab.
2. This system contained satisfactory answers to the problems exercising his compatriots and responded to the mood of the times.
3. It lifted the Arabic-speakers world to the level of the other scripturaries.
4. By placing himself at the end of a long line of prophets that included Adam, Abraham, Moses, and Jesus, Mohammed explained and legitimized his own advent, suggested the greater perfection and the finality of his version of the Book of God and gave the Arab nation metaphysical significance by connecting it at the most honorable and crucial stage with the great drama of God's self-revelation in history, making them the Lord's tool in the propagation of the ultimate truth.
5. Mohammed greatly increased the Arabs' articulateness.
6. He taught the lesson that a community under God was more meaningful and thus of greater political promise than a community under tribal law.

The impulse which compelled Mohammed, the scion of a noble but impoverished branch of the Quraish, to rise up to warn and teach his people was the overwhelming consciousness of the moral accountability of man and of the Judgment, not far off, when the Lord would hold each soul responsible, to reward or condemn according to its deserts .He was

(1) Gustave E. Von Grunebaum, Medieval Islam; A study in cultural Orientation, p.72-73. The university of chicage press. Chicago-london.1969

to admonish them before it was too late. Their rate in the hereafter was at stake, their moral laxness their danger, their thoughtless idolatry their most awesome failing"

كانت الأمور التي أدت إلى فوز محمد كثيرة ومتنوعة، بعضها سياسي بحت وبعضها راجع إلى عون غير متوقع ألقاه إلية الحظ.

ونجد فيما يأتى الأسباب الأساسية التى أفضت إلى قبول معاصريه لدعوته، والتى بدونها لم يكن أى التفاف سياسي حوله مهما اجتمعت قلوبهم عليه، ولا أية لمسة من لمسات الحظ مهما كانت أضواؤها تبهر الأبصار، ليستطيع أن يبقى على عمله:

١. ان نظامه الديني كان أشد ما أنتجه عربى من نظم الديانات إحكاماً وأعظمها توافقاً وتماسكاً.

٢. كان هذا النظام ينطوى على أجوبة مقنعة للمسائل التى كانت تشغل مواطنيه؛ كما كان يتجاوب وروح عصره

٣. أنه رفع العالم الناطق بالعربية إلى مستوى العوالم الأخرى ذات الكتب المنزلة.

٤. أن الوحى حين وضع محمداً في خاتمة سلسلة طويلة من الأنبياء منهم آدم وإبراهيم وموسى وعيسى، إنما قد سوَّغ ظهوره وفسَّره، كما أشار الوحى أيضاً إلى ما عليه الصورة التى أوردها لكتاب الله من الكمال الأعظم والسمة الختامية بالنسبة لغيره من الكتب المنزلة، كما منح الأمة العربية أهمية غيبية ميتافيزيقية بوصلها في أشرف المراحل وأدقها بتلك الدراما العظيمة، دراما وحى الله وتجلى ذاته في التاريخ، جاعلاً إياهم وسيلة الله في إشاعة الحق الأعلى.

٥. زاد محمد كثيراً في فصاحة العرب.

٦. علَّم الناس أن المجتمع في ظل الله أحفل بالمعانى، فهو من ثم أعمر بالآمال السياسية من مجتمع بظل القوانين القبلية.

وكان الدافع لمحمد، وهو وريث فرع نبيل من قريش وإن مسه الفقر أن ينهض لينذر قومه ويعلمهم، هو الوعى الجارف بمسئولية الإنسان الخلقية وبالحساب القريب زمانه، يوم يجعل الله كل نفس مسئولة تثاب أو تعاقب حسبما قدمت يداها.

لقد كان عليه أن ينذرهم قبل أن يفوت الأوان. فإن حظهم في الآخرة كان دائماً محفوفاً بالمخاطر، وتهاونهم الخلقي مصدر الخطر عليهم، وعبادتهم الحمقاء للأصنام أرهب نقيصة فيهم.

الجانب الثانى: دوره الديني وتدينه الشخصي العميق:

جاءت معايير المنصفين في شقها الديني ليست مراعية جانب الرسالة الإسلامية وقيمتها وتوقيت نزولها والظروف التي أُبلغت فيها فحسب، لكن راعت تلك المعايير الدور الديني الذي اضطلع به النبي ﷺ في قيادة أمته وإخراجها من الظلمات إلى النور، فيقول مايكل هارت Michael Hart عن هذا الدور في تقييم عظمة محمد ﷺ:

"How, then, is one to assess the overall impact of Muhammad on human history? Like all religions. Islam exerts an enormous influence upon the lives of its followers. It is for this reason that the founders of the world's great religions all figure prominently in this book. Since there are roughly twice as many Christians as Moslems in the world, it may initially seem strange that Muhammad has been ranked higher than Jesus. There are two principal reasons for that decision. First, Muhammad played a far more important role in the development of Islam than Jesus did in the development of Christianity. Although Jesus

was responsible for the main ethical and moral precepts of Christianity (insofar as these differed from Judaism), St.Paul was the main developer of Christianity theology, its principal proselytizer, and the author of a large portion of the New Testament.

Muhammad, however, was responsible for both the theology of Islam and its main ethical and moral principles. In addition, he played the key role in proselytizing the new faith, and in establishing the religious practices of Islam. Moreover, he is the author of the Moslem holy Scriptures, the Koran, a collection of certain of Muhammad's insights that he believed had been directly revealed to him by Allah. Most of these utterances were copied more or less faithfully during Muhammad's lifetime and were collected together in authoritative form not long after his death. The Koran, therefore, closely represents Muhammad's ideas and teachings and to a considerable extent his exact words. No such detailed compilation of the teachings of Christ has survived. Since the Koran is at least as important to Moslems as the Bible is to Christians, the influence of Muhammad through the medium of the Koran has been enormous. It is probable that the relative influence of Muhammad on Islam has been larger than the combined influence of Jesus Christ and St, Paul on Christianity. On the purely religious level, then, it seems likely that Muhammad has been as influential in human history as Jesus.

Furthermore, Muhammad (unlike Jesus) was a secular as well as a religious leader. In fact, as the driving force behind the Arab conquests, he may well rank as the most influential political leader of all time"

"إذن كيف يمكننا أن نقيِّم أثر محمد الكليّ على التاريخ البشري؟

وكجميع الأديان فإن الإسلام له نفوذ هائل على اتّباعه وحياتهم، ولهـذا السبب فإن القارىء سوف يجد اسماء مؤسسي معظم الأديان في هذا الكتاب.

وبما أن هنالك من المسيحيين ضعف عدد المسلمين في العالم فإنه مـن الطبيعي أن يبدو غريباً تصنيف محمد في مرتبة أعلى من يسوع المسيح. ولكن هنالك سببين رئيسيين لذلك القرار:

أولهما: أن محمداً ﷺ لعب دوراً أكثر أهمية في تطوير الإسلام من الدور الذي لعبه المسيح في تطوير المسيحية، مع أن المسيح كان مسؤولاً عن المبادىء الأدبية والأخلاقية للديانة المسيحية (في النواحي التي تختلف بها هذه المبادىء عن الديانة اليهودية)، إلا أن القديس بولس كان المطوِّر الرئيسي للاهوت المسيحي، وكان الهادي الرئيسي للمعتقدات المسيحية والمؤلف لجزء كبير من العهد الجديد.

ثانياً: أن محمداً ﷺ كان مسؤولاً عن العقيدة الإسلامية ومبادئها الرئيسية الأدبية والأخلاقية. بالاضافة إلى ذلك فقد لعب دوراً قيادياً في الهدي للدين الجديد وتأسيس الفروض الدينية في الإسلام، وهو الذي أنزل عليه القرآن (الكتاب الإسلامي المقدس)، وهو مجموعة من الآيات ذات البصيرة النافذة التي أوحيت اليه مباشرة من قبل الله، ومعظم هذه الأقوال دُوِّنت وسُجِّلت خلال حياة محمد ، ثم إنها جمعت بشكل رسمي موثوق بعد وفاته بفترة وجيزة.

ولذلك فإن القرآن يمثل الأفكار والتعاليم التي أوحاها الله للرسول ، ولكن لم يبق أي أثر يشبه هذا من آثار المسيح. وبما أن القرآن له تأثير على المسلمين يشبه تأثير الكتاب المقدس المسيحي على المسيحيين، فإن نفوذ محمد من خلال القرآن أصبح ضخماً جداً وهائلاً. ومن المحتمل أن تأثير محمد على الإسلام أكبر بكثير من التأثير المزدوج للمسيح والقديس بولس على المسيحية؛ ولهذا فإنه من وجهة النظر الدينية الصرفة يبدو أن محمداً كان له تأثير على البشرية عبر التاريخ كما كان للمسيح.

وفوق ذلك فإن محمداً يختلف عن المسيح بأنه كان زعيماً دنيوياً فضلاً عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمداً يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال.

ويزيد هانزكينج Hans Kueng هذا الدور الديني تفصيلاً ببيان جوانب التأثير الهائل لدور النبي ﷺ الديني، قائلاً[1]:

"- Der prophet hat damit die Araber – gemessen am sehr diesseitigen polytheismus der alterabischren stammesreligionen- auf ein den benachbarten Grossreichen vergleichbares religioeses Niveau gehoben. Der Islamals eine monotheistische, ethische Hochreligion.

- Der prophet hat durch den Koran unzaehligen Menschen seines und der folgenden Jahrhunderte unendlich viel Inspiration, Mut und Kraft zu einem religioesen Neuaufbruch geschenkt: zum Aufbruch in groessere wahrheit und tiefere Erkenntnis, zum Durchbruch auf Verlebendigung und Erneuerung der Veberlieferten Religion. Der Islam als die grosse lebenshilfe.

- ارتقى النبي بالعرب– قياساً بما كانوا عليه من ديانات الآباء الوثنية المتدنية– إلى مستوى ديني يمكن مقارنته بما عليه الممالك الكبرى المجاورة للإسلام كديانة توحيدية أخلاقية كبرى.

- أهدى النبي من خلال القرآن أعداداً غير محدودة من البشر في عصره وبعد عصره إلى مالا نهاية كثيراً من الإلهام والشجاعة والقوة، لبداية دينية جديدة، لاختراق الحقيقة الكبرى والمعرفة العميقة، لاختراق تنشيط وتجديد تقاليد ديانة الإسلام كدعم حياتي كبير."

ولم يكن الدور الديني للنبي ﷺ فقط هو محل عناية المنصفين، بل التدين العميق الذي كان عليه النبي ﷺ، ذلك التدين الذي لا يمكن مقارنته بأي شخص آخر بما كان له من أثر بالغ، كما يقول بارتلمي سانت هيلر M.Barthelemy Saint-Hillaire[2]:

(1) Hans Kueng, Der Islam, s: 159.
(2)La civilization desArabes, P.93

"Mahomet a ete le plus intelligent, le plus religieux, le plus clement des Arabes de son temps.Il n'a du son empire qu'a sa superiorite. La religion prechee par lui a ete un immense bienfait pour les races qui l'ont adoptee."

" كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء وأشدهم تديناً وأعظمهم رأفة، ونال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوقة عليهم، ونعدّ دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته."

ويعد روم لاندو Rom Landau ذلك التدين الفطري أحد العوامل الهامة التي هيأته لحمل الرسالة، قائلاً[1]:

"Muhammad was religious by nature and was evidently predisposed to the message of reform that he received in his visions. In addition to his spiritual nature."

" كان محمد تقياً بالفطرة، وكان من غير ريب مهيّـأ لحمـل رسـالة الإصلاح التي تلقاها في رؤاه بالإضافة إلى طبيعته الروحية "

وبسبب غلبة التقوى والروحانية على شخصية النبي ﷺ، فقـد جعلهـا ردوى بارت Rudi Paret مفتاح شخصيته الحقيقية ﷺ، بقوله[2]:

"Mohammed war in Grund seines wesens ein religioeser Mensch. In seiner Religiositaet liegt der Schluessel zum verstaendnis Seiner persoenlichkeit."

" امتلك النبي محمد في الأصل شخصية دينية، وفي نزعة التدين لديـه نجد المفتاح لفهم شخصيته".

(1) Rom Landau,Islam and the Arabs, p.22
(2) Rudi Paret, Moammed und der Koran, s: 136.

ثانياً: المعايير الحضارية

لا شك أن اعتداد المنصفين بالمعايير الحضارية مقياساً لعظمة النبي ﷺ يكشف عن تفرد النبي ﷺ في عظمته لأنها تجمع بين أسباب التفرد الديني والحضاري.

لكن الملاحظ أن أكثر عوامل التفرد الحضاري في جوانب عظمة النبي ﷺ التي أثبتها المنصفون تدور حول الجانب الديني كذلك، وترتبط به، وتتبني عليه، سواء بكونها نتيجة للعمل الديني أو مظهراً من مظاهره، ولم يختلف ذلك التقييم منذ بداياته في القرن التاسع عشر حتى اليوم، إذ تشترك جميعها في الاحتكام إلى مقياس " الأمة" التي أسسها النبي ﷺ دليلاً على عظمته:

ففي عام ١٨٥٤م وضع الفرنسي لامارتين Lamartine مقاييسه الثلاثة للعظمة الإنسانية التي انطبقت على النبي محمد ﷺ بأتمّ وأكمل جوانبها، قائلاً[1]

"If greatness of purpose.

smallness of means

and astounding results

are the three criteria of human genius, who could dare to compare any great man in modern history with Muhammed?

The most famous men created arms, laws and empires only. They founded, if anything at all, no more than material powers which often crumbled away before their eyes. This man Muhammed moved not only armies, legislations, empires, people and dynasties, but millions of men; and more than that the alters, the gods, the religions, the ideas, the beliefs and the souls.

on the basis of a Book, every letter of which has become law, he created a spiritual nationality which blended together peoples of every tongue and of every race...

(1) Lamartine, Historie de la turguie, paris 1854. vol.II pp.276-277.

The idea of the unity of god, proclaimed amidst the exhaustion of fabulous theologies, was in itself such a miracle that upon its utterance from his lips it destroyed all the ancient superstitions...

His endless prayers, his mystic conversations with God, his death and his triumph after death: all these attest not to an imposture but to a firm conviction which gave him the power to restore a dogma. This dogma was twofold, the unity of God and the immateriality of God; the former telling what God is, the latter telling what God is not..."

" لو أن عظمة الغاية، وقلة الوسائل، والنتائج المذهلة، هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان فمن الذي يجرؤ على مقارنة أى رجل عظيم في التاريخ الحديث بمحمد؟

إن أشهر الرجال أسسوا الجيوش ووضعوا القوانين وأسسوا الإمبراطوريات فقط، إنهم لم ينشئوا أكثر من سلطات مادية كثيراً ما ضعفت أمام أعينهم. إن هذا الرجل محمد لم يؤثر فقط في الجيوش والتشريعات والإمبراطوريات والشعوب والأسر الحاكمة، ولكنه أثَّر أيضاً في ملايين الرجال، بل وأكثر من ذلك فقد أزاح مذابح الكنائس وغيرها من الأنصاب والآلهة والأديان والأفكار والمعتقدات الزائفة والأنفس الضالة.

وقد خلق أمة روحية جمعت معاً أناساً من مختلف الألسنة والأجناس على أُسس كتاب كل حرف منه أصبح قانوناً وشريعة.

إن فكرة وحدانية الله التى طُرحت وسط النظريات اللاهوتية الخرافية المستهلكة كانت في حد ذاتها معجزة حتى أنه بمجرد نطقها من شفتيه، دمَّرت كل المعتقدات الخرافية القديمة.

إن دعواته، وصلواته اللانهائية، ومحادثاته الروحية مع الله، ووفاته، وانتصاره بعد وفاته، كلها أمور لا تشهد على أنه كان مخادعاً، بل إنها تؤكد على إيمان راسخ منحه القوة ليصلح عقيدة ويكملها.

هذه العقيدة كانت مزدوجة تتمثل في توحيد الله وأنه ليس كمثله شـــىء، مما يعّرفنا بالله ما هو، وما ليس فيه."

ولم يكد بوزوورث سميث Bosworth Smith يختلف معه عندما حصر أسباب تفرد محمد ﷺ في ثلاثة قائلاً[1]:

"By A fortune absolutely unique in History, Mohammed is A Threefold founder of A Nation, of an Empire, and of A Religion."

" من حسن التوفيق إنه لأمر فريد على الإطلاق في التاريخ أن محمداً مؤســس لثلاثة أشياء: الأمة، والامبراطورية، والدين."

واتفقت الانجليزية المعاصرة كارين آرمــسترونج Armstrong Karen مع لامارتين، وبوزوورث سميث حول المقاييس الثــلاثة،بقولها[2]:

" If we could view Muhammad as we do any other important historical figure we would surely consider him to be one of the greatest geniuses the world has known. To create a literary masterpiece, to found a major religion and a new world power are not ordinary achievements. But to appreciate his genius to the full, we must examine the society into which he was born and the forces with which he contended. When he descended from Mount Hira to bring the World of God to the Arabs, Muhammad was about to attempt the impossible. A few Arabs of the peninsula were moving towards monotheism, but they hade fully explored the implications of this belief in only one God. This is hardly surprising. It had taken the Jews centuries to believe that Yahweh was the only God. The ancient Israelites probably practiced monolatry: that is, they had agreed that they would worship Yahweh alone, but they believed that the other gods existed. Even Moses may not have been a through-going monotheist. The Ten Commandments which he brought to his people take the existence of other gods for granted: "Thou shalt not have strange gods before me" About 700 years elapsed between the Exodus from Egypt under the leadership of Moses (c. 1250 BCE) and

(1) Bosworth Smith, Mohammed and Mohammedanism.P.19. London 1946.
(2) Karen Armstrong, Muhammad, P.52

the unequivocal monotheism of the prophet, usually known as second Isaiah, who lived with the Jewish exiles in Babylon in about 550 BCE. Yet Muhammad set out to make the Arabs achieve this major change in a mere twenty-three years! We shall see that some of the Arabs begged him to adopt a monolatrous solution and to accept the cult of other gods, while he and his followers worshipped al-LIah alone; but Muhammad absolutely refused to compromise.

To proclaim belief in only one God was not a mere national, cerebral assent. It demanded a change of consciousness."

" فنحن إن استطعنا النظر إلى محمد كما ننظر إلى الشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى، فمن المؤكد أننا سنراه أحد أعظم العباقرة الذين عرفهم التاريخ. فلأن يأتى برائعة أدبية، ويؤسس ديانة عظمى وقوة عالمية جديدة، فتلك إنجازات غير عادية.

ولكى نوفّى عبقريته حقها، فإن علينا دراسة المجتمع الذى ولد فيه والقوى التى صارعها، فحين هبط محمد من غار حراء حاملاً كلمة الله للعرب، كان يحاول المستحيل، فقد كان هناك قليلون من بين العرب في الجزيرة يقتربون من التوحيد، لكنهم لم يكونوا قد تفحصوا المعاني التى تتضمنها العقيدة في الإله الواحد،وليس ذلك بمستغرب، فقد استغرق اليهود قروناً ليؤمنوا أن يهوه هو الإله الواحد. وقد يكون الإسرائيليون قد مارسوا الأحادية في العبادة، أى أنهم قد وافقوا على عبادة يهوه وحده، لكنهم كانوا يعتقدون وجود آلهة أخرى. وحتى الوصايا العشر التى أتى بها موسى قومه (كما تذكرها توراة بني إسرائيل) تعترف ضمناً بوجود آلهة أخرى يعبدونها، فإنها تنص قائلة: " لا يكن لك آلهة أخرى أمامى". ولقد مر حوالى سبعمائة عام بين خروج الإسرائيليين من مصر تحت قيادة موسى (١٢٥٠ق.م) وبين تحقيق الوحدانية التى لا هوادة فيها على يد نبي اليهود الذي يعرف بإشعيا ISIAH الثاني، والذي كان ضمن المنفيين من اليهود في بابل عام ٥٠٠ ق.م.

أما محمد فقد انطلق ليجعل العرب يحققون ذلك الإنجاز الأكبر في فترة لا تتعدى ثلاثة وعشرين عاماً، وسنرى كيف أن بعض الأعراب ترجّوا محمداً أن يتبنوا حل الأحادية في العبادة، أى أن يعبدوا الله مع بقائهم على عقيدتهم في وجود آلهة أخرى، بينما يعبد هو وأتباعه الله وحده، لكن محمداً رفض أى توفيقية وبشكل قطعى.

ولم تكن الدعوة إلى الاعتقاد في الوحدانية مجرد موافقة مفهومية عقلانية. بل كانت تتطلب تغيير الوعى الإنساني نفسه."

* *

المصادر والمراجع

(1) Alphonse de Lamartine, Geschichte der Turkei.1854
(2) Bosworth Smith, Mohammed and Mohammedanism, London 1946
(3) Carl Ernst, Following Muhammad, the University of North Carolina Press. Chapel Hill & London 2003
(4) Carl gueterbock, Der Islam in Lichte der byzantinischen. Polemik.Berlin 1912.
(5) Emile Dermenghem, The Life of Mahomet, George Routledge & sons.ltd. London 1930
(6) Franz Saran. Goethes Mahomet. Prometheus Halle 1914; Robert Petsch. zu Goethes Mahomet.In: Zeitschrift fuer den deutschen unterricht. 29 (1915).S. 673-693;
(7) Friedrich Warnecke, Goethes Mahomet problem. Diss,. Halle Wittenberg 1907;
(8) George Bernard Show, The Genuine Islam. Vol.1. No.8.1936.
(9) Geothe , west Oestlicher Diwan
(10) Goethes werke (WA IV 33. 240) Hg.imauftrage der Grossherzogin sophoe von Sachsen. Abth. IV. Breife. 50 Bde,- Weimar 1887-1912.
(11) Gustav mensching, Mohammed, in : Berckers Kleine volksbibliothek. Verlog Butzon & Bercker, kevelaer Rhld.1950.
(12) Gustave E. Von Grunebaum, Medieval Islam; A study in cultural Orientation, The university of chicage press. Chicago-london.1969
(13) Gustave Le Bon, La civilization des Arabes, Librairie de Firmin-Didat Et C.Paris, 1884
(14) Hans Kueng , Der Islam, piper, Muenchen- zuerich 2006
(15) Houben = Johann peter Eckermann, Gespraeche mit Goethe in den letzten Jahren seines lebens.23. Originalaufl, Nach dem ersten Druck,dem Originalmanuskript des dritten Teils und Eckermanns hs. Nachlas neu. Hg.von H.H.Houben-leipzig 1948.

(16) Jakob Minor, Goethes Mahomet, vortrag.Jena 1907;
(17) John William Draper.M.D.UD, A History of the Intellectual Development of Europe. London 1875
(18) Karen Armstrong, Muhammad A Biography of the Prophet.Victor Gollanc 7. London 1996.
(19) Katharina Mommsen, Goethe und Die Arabische welt, Erste Auflage, Insel verlag Frankfurt om main 1988
(20) Michael Hart, The 100, A Ranking of the Most influential Persons in History, citadel press Secaucus. New Jersey 1987.
(21) Montgomery Watt, Muhammad AT MECCA, Oxford AT 1953
(22) Montgomery Watt, Muhammad AT Medina, Oxford At the Clarendon Press. 1966.
(23) Rom Landau , Islam and the Arabs, George allen & unwin ltd. London1958
(24) Rudi Paret, Mohammed und der koran, , Kohlhammer verlag. Stuttgart.1957. TIME, July 15, 1974.
(25) S.H Abdel Rahin, Goethe und Islam Augsburg 1969.
(26) Sigrid Hunke, Allahs sonne ueber dem Abendland Deutsche Verlags-Anstalt. Stuttgart 1960.
(27) Thomas Carlyle, On Heroes ،Hero-Worship,& the Heroic in History. University of California Press. Loss Angeles-Oxford 1993.
(28) Voltaire, Euvres completes de Voltaire(Kehl) 1785-1789. vol.36
(29) Will Durant, The story of civilization vol:4 The Age of faith. simon and Schuster New York 1950.

* * *